الفصل الثاني

من البدع المذمومة إلى البدع المكفرة

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

الذين آمنوا وكانوا يتقون)

قرآن كريم

تعلم المسلمون أن يتجنبوا محدثات الأمور، وأن يؤدوا الأمانة في دينهم. وكل أمانة لا تؤخذ مأخذ الجد مآلها إلى عدم الأداء، والشرك أخفى من دبيب النمل في الغافلين. إن لم تتيقظ له النفس دب إليها من حيث لا تستبين.

لم تكد تنقضي الأجيال الثلاثة المفضلة حتى نجمت البدع في المجتمع، ومنها ما تصدى له خلفاء بني أمية في أخريات أيامهم وبنو العباس في مطالع دولتهم.

ولم يسلم التيار الفكري للأمة من بدع وافدة من الخارج تهاون في صدرها جمهور أهل العلم، فمكنوا للفكر الباطني أن ت نمو بذوره وأن تمد جذورها من فرقة إلى أخرى: مثل التأويل الباطني أو الرمزي، وإدعاء العلم اللدني، والخوف من غير الله سبحانه وتعالى، وتقديس رجال زعموا رفع التكليف عنهم، وإتيانهم بالخوارق، أو أنهم يعلمون الغيب ولا يمسهم السوء.

وكان كل جيل جديد يشهد جديدًا من البدع أو تمكينًا لغيرهم حتى حل زمان لم يكن ييسر للناظر أن يبصر فيه بأساس دين المسلمين وهو التوحيد الخالص!

وإنما بلغ المسلمون هذا المبلغ دحرجةً، بعد إذ نسى الناس فأنساهم أنفسهم، فأسلموها إلى جنس غالب عليهم بعد جنس آخر، وسرت كالوباء آراء مفكرين جلهم من غير العرب، لأن المسلمين لم يقابلوها بالفكر الأصيل الشافي من المرض، وهو القرآن والسنة. وعلى هذا التراخي أرخى الليل سدوله، وتباطأ تيار الشرع الدقيق في جريانه.

والفكر الأصيل لا يتوقف دفعة واحدة، وإنما يصاب صاحبه بالاختناق؛ إذ تعجز القنوات الاجتماعية والإنسانية عن تحمله لعوامل قريبة أو بعيده. منها ضعف الدين أو نقص العلم أو فقدان الأنفس ثقتها بما هي فيه عن يقين أو توهم، فتستحب الدخيل عليها أو تستنيم له أو تعجز

عن مغالبته، ويوهى جلدها تعاقبُ الزمان وانقطاع الأمل والعجز عن الجهاد والاجتهاد والرضا بالتقليد والتواكل. فترك الشر وشأنه.

ولم يك بعيدًا عن ذلك أمر الجماعة الإسلامية منذ المائة الثالثة للهجرة، إذ أتيح للفكر الشعوبي أن يزدهر بأفول نجم العرب، ثم بحرمانهم من الجهاد، منذ قصر المعتصم الجندية على الأتراك. وتلاحق الغزاة على المجتمع، وفي جعبتهم آراء شتى ومتشعبة وبقايا مترسبة من عقائد بالية لم تتطهر بعد بالإيمان الصحيح، أو حرص عليها أصحابها كشعار عنصري لمقاومة العرب. ومن ذلك تأليه الملوك وعبادة النار والاعتقاد بوجود إلهين للخير والشر والنور والظلام والامتناع عن الزواج وشيوعية الأموال والأزواج ورجوع الموتى للحياة في الدنيا.

فمن قبل الإسلام سادت المزدكية في فارس وخراسان وفيها جماع مبادئ الديانات الفارسية: من أتباع ماني الذين يرون للعالم أصلين هما الظلام والنور، وأن الحياة على الأرض جناية، وأن لا داعي للزواج – إلى أتباع زرادشت (٥٨٣ ق. م) الذين يؤمنون بوجود إلهين إله للخير وآخر للشر، وأضاف مزدك إلى العقيدتين السابقتين مبدأ شيوعية الأموال والأزواج. وعندما قتل ماني (٢٧٦) ومزدك (٥٢٩) شاع بين أتباعها أنهما لم يقتلا، وإنما رفعا إلى السماء، وأن كلاً منهما سيعود ليملأ الدنيا عدلاً!

ولما دخل المسلمون فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وتركستان (روسيا السوفيتية الآن) في القرن الأول للهجرة وجدوا الناس يعبدون النار، ويعتقدون تعدد الآلهة والاتصال بالعالم الخفي وهبوط المعارف من العالم الإلهي إلى بعض الناس.

ولم يكد يستهل القرن الثاني للهجرة حتى تداول المسلمون ترجمات شتى، منها ترجمة ابن المقفع لكتاب مزدك المسمى (دستاو)، وترجمة لكتاب كليلة ودمنة من اللغة الهندية فيها أفكار مزدكية. واشتهرت زندقته حتى كان الخليفة المهدي يقول: (ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع).

وكما نبه البيروني فيما بعد على ما كليله ودمنة من زندقة، نبه على أن عبد الكريم من أبي العوجاء – وهو عربي ملحد قتله المهدي فيمن قتلهم من الزنادقة – كان من المانوية.

ومن قبل المهدي ظهرت هذه العقائد في أتباع أبي مسلم الخراساني – قائد الجيش الخراساني الذي جاء ببني العباس إلى الخلافة – فألهه أنصاره قبل أن يقتله عبيد أبي جعفر

المنصور في حضرته، ثم في أتباع ابنته وابنها فيروز، وفي أتباع سنباذ؛ إذ قام يطالب بدمه. وفي الراوندية الذين هجموا على أبي جعفر ليقتلوا فنجا منهم بشجاعة.

أما يحيى بن خالد – أبو البرامكة وأستاذ الرشيد ومربيه ووزيره الذي فوض إليه وإلى بنيه شئون الدولة – فكان جدوده سدنة بنت النازفي بلخ.

وفي يحيى وبنيه يقول الأصمعي:

إذا ذكـــــر الشـــــرك فـــــي مجلـــــس أضـــــاءت وجـــــوه بنـــــي برمـــــك
وإن تليـــــــت عنـــــــدهم آيـــــــة أتـــــوا بالأحاديـــــث عـــــن مـــــزدك

وكان جوستنيان إمبراطور الرومان قد أغلق "الأكاديمي" في أثينا، فلجأ علماؤها إلى كسرى سنة ٥٢٩ للميلاد، فمكن لهم في "مدرسة جنديسابور". وأحدثت هذه المدرسة من نحو قرن قبل قيام التقويم الهجري تخليطًا إغريقيًا فارسيًا في التفكير آل إلى المسلمين بين ما آل إليهم من العلاقات والترجمات. وقد أخذت سيلها إلى العرب من عهد بني أمية، ولهذا لم تبعد من المسلمين آثار مدرسة الإسكندرية وفيها الفكر الإغريقي الوثني بمثالبه واتجاهاته.

ولمدرسة الإسكندرية شأن من عهد إقليدس وأرشميدس وأفلاطون وفيثاغورث، وفيها أصداء الفلسفة الكنيسة التي تأثرت بها فلسفة أفلاطون فسميت الأفلاطونية المحدثة.

وكان للراهب القبطي المصري الإخميمي أفلوطين أثر ظاهر في هذه الفلسفة ذاع به التشبيه والتجسيد والغنوص.

ومن مصر القبطية عرف العالم نظامي الرهبنة التوحدية والديرانية، وانتقل مثلها إلى فلاسفة المتصوفين المسلمين، فتأثروا بها بين ما تأثروا به من فكر باطني وتأويل رمزي وآراء غيبية ونزعات فارسية وهندية وإغريقية وإسكندرانية.

وسنرى بعد ذلك كثيرًا من الأفكار الوافدة من الخارج وآثارها لدى غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة فيما أطلق عليه المتأخرون وصف (التصوف الفلسفي) وفي كثير منه ما أجمع العلماء على تبديعه، لأنه يخالف الأصول.

التصوف السلفي

أما التصوف السلفي الذي يجمع عليه المسلمون فهو زهد الصحابة والتابعين أي "السلف الصالح". والمتصوفة عمومًا يعتبرون أحمد بن حنبل من أوتادهم: يقول أبو بكر البطائحي: (أوتاد العراق ثمانية: معروف الكرخي وأحمد بن حنبل وبشر الحافي وسري السقطي...).

وأحمد أزهد الناس في مدخله ومخرجه ومسكنه ومأكله وملبسه.

يقول: (ما أعدل بالفقر شيئًا) ويقول: (إني أفرح إذا لم يكن عندي شيء) ويقول: (ما قل من الدنيا كان أقل للحساب).

ولما أحاط به الرفاه في قصر المتوكل تقبض عنه واستخرج الكسر من زاده، وجاع حتى خيف عليه التلف.

يشتري بدرهم شحما، فيأكل منه شهرًا، فإذا استيسر له الأمر فربما اشترى بطيخة أو عنبًا أو تمرًا. أو ربما أخذ الكسر فصيرها في قصعة وأضاف إليها الملح وأكل.

وأبو حنيفة ومالك لباسان. وفي الطعام يتقشف أبو حنيفة.

والشافعي يأكل ويلبس ما تيسر.

وهدى الرسول ﷺ أَكْلُ ما تيسر ولبس ما تيسر. ولا يرد موجودًا ولا يتكلف مفقودًا وما قرب إليه شيء من الطعام إلا أكله إلا أن تعافه نفسه من غير تحريم. ولم يكن يرد طيبًا ولا يتكلفه. يرى الهلال وراء الهلال وما توقد في بيته!

والفقر زهد في المال والمظهر والطعام واللباس وخلو القلب من كل ذلك. والغني سافل وغال: السافل غني عن الأعراض والعواري المستردة. والعالي غنى القلب.

يقول عليه الصلاة والسلام: (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغني غنى النفس). وقالت حفصة أم المؤمنين لعمر إذ فتحت الفتوح: البس الثياب. وإذا وفدت عليك الوفود فمر بصنع طعام تطعمه وتطعم من حضر. فقال لها: هل تعلمين أن رسول الله لم يشبع ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟ هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه طعامًا على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟ إن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت

ليلة أربع طاقات نام عليها. فلما استيقظ قال: منعتموني قيام الليل بهذه العباءة اثنوها اثنين كما كنتم تثنونها).

وهو القائل ﷺ: (طوبى لمن هُدي للإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع).

وفي زهد الصحابة يقول عبادة بن الصامت للمقوقس: (وما يبالي أحدنا أكان له قناطير مقنطرة من الذهب والفضة أم كان لا يملك إلا درهمًا؛ لأن غاية أحدنا أكلة من الدنيا يسد بها جوعه ليله ونهاره).

وكان منهم الأغنياء من تجاراتهم كعثمان وعبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة رضي الله عنهم. والهجرة والجهاد والتضحية بالنفس والمال أعظم درجة: روى النعمان بن بشير قال: كنت عند النبي ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج! وقال آخر ما أبالي بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام! وقال علي بن أبي طالب: الجهاد في سبيل الله أفضل؛ فقال عمر: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته: فسأله، فأنزل الله تعالى هذه الآية: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدًا إن الله عنده أجر عظيم).

ولما غاب عمير بن سعد في ولايته أرسل عمر يستدعيه، فأقبل وعلى كتفه اليسرى قربة ماء وعلى اليمنى قصعة، وفي يده عصاه، فدخل المدينة أشعث أغير من وعثاء السفر حتى بلغ مجلس عمر، قال: ما شأنك يا عمير؟

قال: شأني ما ترى؟ ألست تراني صحيح البدن طاهر الدم، معي الدنيا التي أجرها بقرنيها.

قال عمر: أجئت ماشيًا، أو لم تجد من يعطيك دابة تركبها؟

قال: إنهم لم يفعلوا ولم أسألهم.

قال عمر: فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟

قال: أتيت البلد الذي بعثتني إليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم حتى إذا جمعوها وضعتها في مواضعها..

قال عمر: فما جئتنا بشيء؟ قال لا، ولو بقى لجئتك به.

قال عمر: جددوا لعمير عهدا!

قال عمير: (تلك أيام قد خلت، لا عملت لك ولا لأحد بعدك).

ولم يكن عمر يطيق رجلاً قُعدة، بل كان يسقط من عينه الرجل إذا لم تكن له حرفة، سأل أهل الصفة: مم تعيشون؟ قالوا: نقيم الصلاة ونتلقى الصدقات، قال: ليس في الإسلام سؤله؛ وأخذ منهم أموالهم وغنمهم وآتاهم جريدًا وعلمهم كيف يصنعون الحصر.

وفي العام التالي قالوا له: إنا نزكي الآن ونتصدق؛ فلقد صاروا أغنياء بالعمل.

ويسأل عليه الصلاة والسلام عن اللباس الحسن: أيكون من الكبر؟ فيجيب (لا، إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس).

ويقول مالك بن دينار: (أدركنا الصحابة وهم لا يعيب بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى، لا يعيب صاحب الخز على صاحب الصوف. ولا صاحب الصوف على صاحب الخز).

ويضع عبد الله بن عمرو (٦٦) الضوابط بين المسلم العادي الذي أغناه الله عن الناس وبين من عداه يوم سأله سائل: وقال له عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟. قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء؛ قال الرجل: فإن لي خادمًا؛ قال: أنت من الملوك!

وكان أحمد بن حنبل يلبس الغليظ لكن ثوبه ليس غليظًا ينظر وإن كان رخيص الثمن يؤخذ بالدينار ونحوه. ملحقته تساوي خمسة عشر درهمًا، ولم يكن لباسه بذاك.

وقد يرقع قميصه برقعة يقتطعها من إزاره.

وسيصبح لباسه أجود قليلاً بعد إذ يبلغ السبعين ويستغني عنه ابناه، فيومئذ تخلص له أجرة حوانيته التي كان يؤجرها في الشهر ببضعة عشر درهمًا.

وهذا الإيراد الذي يكفيه يحدد لنا حدود الزهد عنده، إذ يسأله سائل عمن يمتلك مائة دينار: أيكون زاهدًا؟ ويجيب الإمام: "نعم على شريطة أنها إذا زادت لم يفرح وإذا نقصت لم يجزع. "ومائة دينار تربو على مائة ضعف لما يكتفي أحمد شهرًا".

وابن مسعود صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام يقول عن الغنى والفقر: (هما مطيتان ما أبالي أيهما ركبت! إن كان الغنى ففيه البذل، وإن كان الفقر ففيه الصبر).

وفي هذا الزهد السلفي يتشدد المتصوفة الأول، فيقولون: إن أصولهم ثلاثة:

١- ملازمة الكتاب والسنة.

٢- ترك الأهواء والبدع.

٣- ترك الرخص والتأويلات: أي الأخذ بالعزائم.

يقولون: كان النبي ينهى عن وصل الصيام، ومع ذلك كان يواصل الصوم ويسرده حتى يقال لا يفطر. ويفطر حتى يقال لا يصوم! ولذلك واصل بعض الصحابة الصوم مع نهي النبي عنه، لأنهم فهموا أن النهي للرفق ولم يروا أن يرفقوا بأنفسهم؛ لأن ترك النفس على هواها خطر، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (حفت النار بالشهوات).

ومن الثابت أن الصحابة تورعوا عن كثير من المباحات: كأم المؤمنين عائشة. فكثيرًا ما تصدقت بالمال العظيم، وأفطرت على أقل شيء!.

* * *

ومع أن النهي عن التشديد صريح في الشريعة في كل مجال حتى صار أمرًا قطعيًا، فإن بعضًا كانوا يستحبون المشقة وهم العليمون أن الله يحب أن تتعاطى رخصة. ومع أن إيذاء النفس منهي عنه فالبعض يقارنون بين عمار حين استعمل التقية، والكفار يعذبونه بالنار لينجو بحشاشته، وبين خبيب بن عدي إذ رفض استعمال التقية فقتل.

وكان إبراهيم التميمي (الذي مات في سجن الحجاج سنة ٩٢) يقول: إذا أخذت برخص كل عالم اجتمع فيك الشر كله.

وأحمد يروي عن محمد بن يحيى القطان: لو أن رجلاً عمل بكل رخصة: بقول أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع (يعني الغناء) وأهل مكة في المتعة – أو كما قال– لكان فاسقًا.

ولما سئل أحمد عن الأسير يخير بين القتل وبين شرب الخمر أجاب: إن صبر فله الشرف وإن لم يصبر فله الرخصة.

فأحمد يرى الصبر شرفًا والرخصة حقًا.

وأقوال الصوفية متواترة على أنهم لا يخرجون على السنة: فالجنيد (٢٩٧) يقول: (علمنا هذا مشيد على الكتاب والسنة). ويقول: (الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبي ﷺ فإن الله عز وجل يقول في حديث قدسي: وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك).

ويقول: (أخذت عن أبي الحسن السري بن المغلس السقطي (٢٥٣) [٢٠]، وأخذ السرى عن معروف الكرخي (٢٠٠)، وأخذ معروف عن فرقد السنجي، وأخذ فرقد عن الحسن البصري [٢١] (١١٠)، ولقى الحسن سبعين من البدريين).

ومن مشيخة الصوفية الشبلى أبو بكر بن جحدر (٣٢٧)، وكان فقهيًا على مذهب مالك، يسأل عن الزكاة في خمسين من الإبل فيجيب: في الشرع شاة. وفيما يلزم أمثالنا كلها. قال السائل: هل لك في هذا إمام؟ فأجاب: أبو بكر الصديق، حيث أخرج ماله كله فقال النبي ﷺ: ما خلفت لعيالك؟ قال: الله ورسوله! وفي رواية أخرى أنه أجاب "أما الواجب فشاة. وأما عندنا فكلها لله). قيل وما دليلك؟ فأجاب: أبو بكر حيث خرج عن ماله كله لله. فمن خرج عن ماله كله فدليله أبو بكر. ومن خرج عن بعضه وترك بعضه فدليله عمر، ومن أعطى لله ومنع لله فدليله عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي".

الصوفي:

والصوفية لا ينتسبون لأهل الصفة أو إلى الصفاء كما يدعي بعضهم [٢٢] بل هم منسوبون إما إلى لبس الصوف وإما إلى كلمة (صوفي) Sophia الإغريقية.

---

(٢٠) حال الجنيد ومعلمه وكان زميلاً لأحمد بن حنبل في عهد الطلب، وكان من أوائل المتكلمين في التوحيد على طريقة الصوفية. وهو التاجر الصدوق والزاهد الأمثل. وكان يعمل وينفق أمواله على الزهاد.

(٢١) يقول فيه أبو نعيم أحمد عبد الله الأصفهاني (٤٣٠) في حلية الأولياء: (حليف الخوف والحزن والهم والشجن عديم النوم والوسن أبو سعيد الحسن بن الحسن، الفقيه الزاهد المتشمر العابد).

قال له رجل من عظم مهابته أنت متكبر؛ قال: (لست بمتكبر ولكني عزيز) وهو قاضي عمر بن عبد العزيز.

(٢٢) البيروني منذ القرن الرابع يروي قول أبي الفتح البستي (٤٠٠)

أما النسب الأول فعربي مرده إلى أن بعض الحنفاء في الجاهلية كأمية بن الصلت قد ارتدوا الصوف، أو كزيد بن عمرو وقد ارتدى ملابس من شعر.

وفي الإسلام لبس الصوف سلمان الفارسي وأبو ذر وأبو عبيدة. وقال أبو موسى الأشعري: يا بني، لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لبسنا الصوف.

ثم مضى قرن ظهر لبس الصوف فيه على بعض الزاهدين، ومنهم من تظاهر بالتقشف، إذ لبسه، فأصبح سفيان الثوري (١٦١) يرى لباس الصوف علامة رياء. فيقول: (لولا أبو هاشم الكوفي (١٥٠) ما عرفت دقيق الرياء) وأبو هاشم أول من أطلق عليه وصف "الصوفي" وكان يلبس الصوف. ثم لبسه الكثيرون في القرون التالية، كما لبسوا الخرقة علامة على التصوف.

وفي محاربة التظاهر بالملبس يقول الجنيد منذ القرن الثالث: (إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب: ليس التصوف بالخرقة ولكن الاعتبار بالحرقة).

وفي القرن الخامس كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يلبس الصوف أحيانًا، ويفتك بالأمة!

وأما النسب الثاني فإغريقي صراح يتزعم القول به منذ القرن الرابع أعظم عقلية في التاريخ – كما يقول المؤرخ الأوربي سخاو – البيروني (٣٥١ – ٤٤٠).

والبيروني منذئذ يرى أن (صوفيا) اليونانية. ومعناها "الحكمة" أصل وصف (الصوفي) في المسلمين.

ومن المستشرقين كثيرون [٢٣] يرون أن قرب خراسان من الهند ومن بلاد فارس ومن العرب ييسر فهم الأصل المجوسي للتصوف. والبيروني يرى التشابه قويًا بين اليوجا الهندية وبين كثير من تصرفات المتصوفة ويوازن بين أنظار اليونان ومذاهبهم وبين أذواق المتصوفة ومقولاتهم ورياضاتهم، وينتهي إلى تشابه حكماء الهند واليونان وصوفية المسلمين؛ إذ يشترك

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدمًا وظنوه مشقًا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى لقب الصوفي

(٢٣) منهم هورتين وتوليك وبلوشيه وماسنيون وبراون وأوليري وجولدتسير.

التصوف والديانة البرهمية في عقيدة وحدة الوجود التي تجلت في مقولات المتفلسفين من المتصوفة في أواخر القرن الرابع للهجرة.

والبعض يرى آثارًا من المسيحية وانتشار الرهبنة فيها والقول بالحب الإلهي قد انتقل إلى المتصوفة المسلمين من القساوسة. بل يروي المبرد في الكامل أن راهبين قدما من الشام لزيارة الحسن البصري (فإن صفاته كحياة المسيح) كما عبر واحد منهما عن شعوره.

ومن قبل الإسلام غلا أقباط مصر في رهبانهم، وازدادوا غلوًا في الدين يموتون منهم، فاتخذوا قبورهم أوثانًا تعبد أو مناسبات لشد الرحال في الأعياد والموالد. وكانت تحدث فيها انحرافات نهى عنها صلحاء المسيحية، ستراها تنحدر إلى أجيال لاحقة في مجتمع المسلمين.

كما قدست أجيال لاحقة الأولياء كهيئة تقديس القدماء للقساوسة، في حياتهم وبعد موتهم، وأقامت التكايا كهيئة الأديرة التي أقامها أقباط مصر القدماء، ونقلها عنهم المسيحيون في أرجاء العالم [٢٤].

التصوف الفلسفي

الحق أن القرون الأولى من عمر الإسلام لم تعرف التصوف إلا على أنه الزهد والتقشف، وإن بدات تستمع إلى أقوال في الحب والأذواق والمواجيد والأحوال والمقامات في المائة الثانية ثم الثالثة.

والحق كذلك أن التصوف – كالشبع – وجد مثابة له في كثير من أنحاء فارس وخراسان وفيها تعاقبت دول الشيعة.

---

(٢٤) جاء في كتاب تاريخ الحضارة المصرية أن القديس باخوميوس (٢٩٠ – ٣٤٨م) وضع مجموعات قوانين للرهبان الذين يعيشون في دير واحد حياة فقر اختياري وتبتل وطاعة للمرشد، وأن الأنبا شنودة (٣٣٣ – ٣٥٠م) أقام للرهبان الديرين الأبيض والأحمر قريبًا من أخميم وسوهاج وأخذهم بالنظم القاسية. ونادى بإصلاح حال الموالد حيث يقيم القبط أعيادًا للقديسين تقام الصلوات فيها وتؤدى النذور، وتنحر الذبائح، وكانت تحتوي على فضائح في الخيام والأسواق لا تقرها الكنيسة، وفي صددها ألقى الأنبا شنودة موعظته الشهيرة عند أقباط مصر وفيها يقول: (جميل جدًا أن يذهب الإنسان إلى مقر الشهيد ليصلي وينشد المزامير ويطهر نفسه، ويتناول الأسرار المقدسة، أما من ذهب ليتكلم ويأكل ويشرب الخمر ويزني ويرتكب الجرائم فهذا الكافر بعينه) وكما حارب القس القبطي الموالد حارب التدجيل الطبي والسحر وبناء الهياكل على أجساد الشهداء باعتبار ذلك كله وثنية آثمة.

ففي القرن الثاني (المائة الثانية) توفي أربعة من أشياخ التصوف هم داود بن صير الطائي والفضل بن عياض وإبراهيم بن أدهم [٢٥] وتلميذه شفيق البلخي (١٩٤) وأولهم عربي والثلاثة الآخرون من بلخ ومرو أو سمرقند.

ثم وجد في القرن الثالث متصوفة عراقيون وشاميون ومصريون كأبي حمزة (٢٦٩) – تلميذ أحمد بن حنبل – والحارث المحاسبي وأبي سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري (٢٩٥) وذي النون (٢٤٥)، لكن الذين نبه ذكرهم من خارج جزيرة العرب كانوا أكثر عددًا كمصور ابن عمار وبشر الحافي (٢٢٧) وحاتم الأصم تلميذ شفيق وأحمد بن خضرويه (٢٤٠) وأبي تراب النخشبي (٢٤٥) – والسري السقطي (٢٥٣) والجنيد ويحيى بن معاذ الرازي (٢٥٨) وأبي يزيد البسطامي (٢٦١) [٢٦].

وفي خواتيم القرن الثالث مات منهم محمد بن علي الحكيم الترمذي (٢٩٦) [٢٧] الذي نجمت في مؤلفاته نظرية الولاية وخاتم الأولياء، فدار حولها فلاسفة التصوف.

وفي الحكيم الترمذي يتمثل ميلاد فكر هجين في المتصوفة المسلمين، وفي ذلك قول المستشرق ماسنيون إنه (كان أول مسلم صوفي ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانية).

ولم تذع مؤلفاته بعد وفاته إما لإخفائها وإما لرفضها. فأبو بكر الكلاباذي (٣٨٠) لا يذكره في كتابه مع أنه عقد فصلاً خاصًا عن النبوة والولاية. وفي القرن التالي ذكره القشيري ولم ينبه على أفكاره. ويقول: (آربرى وحسن عبد القادر): وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب في إهمال هؤلاء الكتاب الذي كتبوا عن الصوفية في القرنين الرابع والخامس لم يقتنعوا بحال الترمذي؛ ليتخذوا منه دليلاً على خطتهم في الدفاع عن الصوفية ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة).

---

(٢٥) كان أبو حنيفة يقول إذ يغشى حلقته إبراهيم بن أدهم (١٦٠): جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم.

(٢٦) أبو يزيد البسطامي أول من استحدث كلمة السكر تعبيرًا عن الحب وانتهاء إلى الفناء والتحقق بالاتحاد مع الذات الإلهية ومثله يحيى بن معاذ.

(٢٧) ولد في أوائل القرن الثالث بترمذ. والمؤرخون يروون أنها كانت مركزًا للبوذية فيها اثنا عشر ديرًا وألف راهب، نفى أهل ترمذ الحكيم الترمذي من بلدهم، فخرج إلى نيسابور، والسلمي يذكر أنه خرج إلى بلخ، ويقول تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية: (ولعل الأمر كما زعم السلمي وإلا فما تظن بمسلم أنه يفضل بشرًا على الأنبياء عليهم السلام).

ولقد كان الحكيم الترمذي يقول: (ما صنعت حرفًا عن تدبر ولا لينسب إلى شيء منه، ولكن كان إذا اشتد على وقتي أتسلى به).

لكن الهجويري (٤٦٥) يتكلم عنه [٢٨] فيطيل الكلام.

أما يحيى بن عربي في القرن السابع فيسنقل كلامه كله ثم يطوره أطوارًا أبعد ما تكون عن نهج آباء الصوفية الصلحاء: كإبراهيم بن أدهم والجنيد والشبلي والسقطي وأمثالهم.

والحسين الحلاج مولوج بمدينة بيضاء بفارس سنة ٢٤٤ من السابقين إلى القول بالحلول والاتحاد وفي ذلك شعره:

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا نحـن روحـان حللنـا بـدنًا
فـإذا أبصـرتني أبصـرته وإذا أبصـرته أبصـرتنا

وافتتن الناس بالحلاج، فنسبوا إليه القدرة على معرفة الغيب وإحياء الموتى، واتصلت أسبابه بالقرامطة، وصدرت ضده الفتوى من محمد بن داود الأصفهاني – الظاهري – فسجن وهب ثم قبض عليه وحوكم وأعدم سنة ٣٠٩.

لكن التيار العام للتصوف ظل يجري في القرن الرابع بين ضفاف الفكر الإسلامي، مثلما شهدنا ابن حنبل في القرن الثالث يشهد جلسة الحارث المحاسبي فيتأثر كجلاسه ويكتفي بأن ينهي صاحبه عن مجالسهم دون أن يفسقهم.

---

(٢٨) يقول الهجويري ما تعريبه: (فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية، وقد أكد على هذه الحقيقة كل الشيوخ. وإن اختلفت عباراتهم في ذلك. وكان محمد بن علي الحكيم الترمذي هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف.. وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفي حتى تنتفع بهذه الآراء، وكذلك من يقع هذا الكتاب في يده: فاعلم أن "الولي" هو لفظ جار على ألسنة الناس، وجاء في القرآن وحديث الرسول؛ فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته، واختارهم حكامًا لملكه، ومنحهم أنواع الكرامات.. ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين إنما هي عند العلماء فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هي عند الأولياء.. والله جعل دلائل النبوة باقية إلى وقتنا الحاضر، وجعل الأولياء مظهرًا لهذا المعنى علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد: فجعل الأولياء حكام هذا العالم، واختارهم لهذا العمل، وجعلهم لا يتتبعون آثار حواسهم، فببركة حلولهم تمطر السماء، وبنقاء حياتهم ينبت الزرع، وبدعائهم ينتصر المسلمون على الكفار، وهم ليسوا معصومين من الذنب لأن ذلك للأنبياء خاصة، ولكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية. هذه هي أصول مذهب محمد بن علي الحكيم الترمذي.

obeikandl.com

وفـي أواخـر القـرن الرابـع ظهـرت مؤلفـات أبـي نصـر السـراج (٣٧٨) صـاحب اللمـع، والكلاباذي (٣٨٠) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف وأبـي طالب المكي (٣٨٦) صاحب قوت القلوب.

وفي منتصف القرن الخامس ألف الهجويري كتابه كشف المحجوب عد للمتصوفة اثنى عشر فرقة هي المحاسبة نسبة للحارث بن أسد المحاسبي والقصارية نسبة لحمدون القصار والطيفورية نسبة لابن يزيد طيفور البسطامي والجنيدية نسبة للجنيد والنورية لأبي الحسين النوري والسهلية نسبة لسهل التستري والحكيمية نسبة للحكيم الترمذي والخزازية نسبة لأ[ي سعيد الخزاز والخفيفة نسبة لمحمد بن الخفيف واليسارية نسبة لأبي العباس اليساري والحلولية للقائلين بالحلول. ولم يذكر الفرقة الثانية عشرة فلعلها سائر المتصوفة.

والقشيري – وهو من كبار كتاب المتصوفة، ومعاصر للهجويري – لا يحتفل إلا قليلاً بالحكيم الترمذي، فلو احتفل به لما أعلن انقراض التصوف السابق عليه حيث يقول: (اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة قد انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم، حصلت الفترة في هذه الطريقة لا بل اندرست بالحقيقة. مضى الشيوخ كان بهم اهتداء وقل الشباب الذين كان لهم بها اقتداء).

ولعل القشيري كتب ذلك قبل أن يذيع خبر أبي سعيد بن أ[ي الخير (٣٥٧ – ٤٤٠) بنيسابور، بل لعله كان يعلن ميلاد عصر جديد لطرز فارسية مستحدثة في ممارسة التصوف حين قال: (عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية. ولم نر صوفية، ولو لم نره لقرأنا التصوف في الكتب).

وآثار أبي سعيد في تاريخ التصوف خطيرة.

فلقد تلمذ للقفال العالم الشافعي الكبير، ثم لبس خرقة التصوف على يد أبي عبد الرحمن السلمي (٤١٢)، ثم اعتنق مبدأ وحدة الوجود واستكثر من البدع.

فأبو سعيد أول من استعمل اللسان المرموز الذي أكثر من استعماله الفرس، ومنهم شعراء التصوف كالعطار وجلال الدين الرومي والسناني.

وأبو سعيد مولع بالسماع والإنشاد، مولع بالرقص، يراه رياضه تساعد المريد على التخلص من شهوة الجسد! وبالإنشاد والرقص اختصت فرقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي والتي خصها المستشرقون باسم "الدراويش الراقصين".

وأبو سعيد أول من أقام عددًا من التكايا أو الحانقاهات أو الزوايا. لينقطع فيها رجال للذكر والعبادة والزهد على طريقته، واستكثر منها في فارس وخراسان، وكان يشرف عليها ويعلم المنقطعين إليها.

وأصبحت التكايا [٢٩] منذئذ ظاهرة اجتماعية في بلدان المسلمين.

وذاع عن أبي سعيد أنه يقول بسقوط التكليف عن بعض القوم، بل إنه لا يلزم فرائض الإسلام؛ فهذه انحرافات كثيرة بدأت على يد رجل واحد في منتصف القرن الخامس بخراسان في الوقت الذي أعلن فيه القشيري انقراض التصوف السابق، وأنه لم ير قبله تصوفًا.

وجرت الرسائل بين أبي سعيد وبين ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨) [٣٠].

---

(٢٩) وليس نظام التكايا، إلا نسخة طبق أصل مسحيي يملأ أقطار أسيا وأوربة وأفريقية من قرون قبل الإسلام، وبعده، منذ قدمه أقباط مصر للعالم المسيحي في شكله التوحدي والديراني في أواخر القرن الثالث الميلادي وأوائل القرن الرابع: فالقديس أنطونيوس رائد الرهبنة التوحدية والقديس باخوميوس رائد المجتمع الديراني، ومن بعدهما ظهرت الرهبنة التوحدية في جبل آثوس بسالونيك، واشتهرت الرهبنة الديرانية في دير ستوديوس بالقسطنطينية.

والرهبنة التوحيدية تصوف انفرادي كمن يعيش حياته على عمود أو داخل كهف أو تجويف شجرة!

والرهبنة الديرانية تصوف جماعة لقراءة الأناجيل والعبادة.

يقول الدكتور رأفت عبد الحميد الأستاذ بجامعة عين شمس في تقديمه لكتاب العالم البيزنطي: (قام الرهبان بدور كبير في الدفاع عن العقيدة الأرثوذوكسية، ولذلك فلا غرابة في أن يصبح الرهبان عمد العالم البيزنطي الذين تعلقت بهم أفئدة الجميع، وراحوا يطلبون إليهم قضاء حاجاتهم وتحقيق الآمال وهذا أحل الرهبان مكانة فريدة في الشرق الروماني) وينقل الأستاذ عن كتاب المؤرخ جيبون (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) قوله:

(وقد سلم جبل متخنث ذليل في روع وتقوى بحياة الكسل التي يحياها الرهبان، ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر إلى العزلة بقصد التعبد لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان التافهين على التخلي عن علم الدولة).

(٣٠) من ردود ابن سينا عليه مخطوطات محفوظة بدار الكتب المصرية ١– عن الغرض من القياس وتبعية العلم له ٢– تعلق النفس بالبدن ٣– سبب إجابة الدعاء ٤– الدخول في الكفر الحقيقي والخروج من الإسلام المجازي. ويطلب على الرسالة الأخيرة اسم الرسالة الإرشادية وهي رد من ابن سينا على كتاب لأبي سعيد في نفس الموضوع.

وذاع أمره بين الفقهاء فندد به ابن حزم (٤٥٦) قال: (إن من الصوفية من يقول: إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى. وبلغنا أن بنيسابور اليوم رجلاً يدعى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية، مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة. وهذا كفر محض).

obeikandl.com

وكان أبو سعيد يعقد المجالس ويخطب على المنابر ويجادل الفقهاء مما عرض حياته أحيانًا للخطر ولم يبرح بلدته (ميهنة) طوال نصف قرن إلا إلى طمس قصة خراسان أو إلى خراقان.

من غلاة الشيعة إلى التصوف الفلسفي

غلاة الشيعة

كان لأمير المؤمنين على وشيعته شأن كبير في فجر الإسلام. فهو بطل حروب الإسلام بلا منازع. وصهر النبي الذي نشأ في بيته، وله الأنصار في حياة النبي وفي عهد الخلفاء الراشدين قبله. ولما بويع له بعد مقتل عثمان خاض المسلمون معه الحروب مستبسلين في الجمل وصفين والنهروان، فلما استشهد التفت شيعته حول بنيه ثم تفرقت فرقًا ترى كثرتها إمامة أبناء علي من فاطمة الزهراء: أي بيت الحسن والحسين باعتبارهم (أهل البيت)؛ والقلة رأت إمامة محمد بن الحنفية بن علي من زوجته من بني حنيفة. ونقلت إمامته إلى ابنه أبي هاشم. واستغل بنو العباس تلك الفرقة، واحتجوا بما قيل: إنه وصية من أبي هاشم لواحد منهم، وأرجعوا حقهم في الخلافة إلى أنهم أهل النبي أو أهل "بيت النبي".

وعلا شأن التشيع لعلي في أهل خراسان كراهة منهم لبني أمية في الشام وإيثارهم العرب على الموالي، وأملاً في أن يتساوى الموالي والعرب. وزاد غضبهم تصالح الحسن بن علي مع معاوية ثم استشهاد الحسين وأهله في كربلاء سنة ٦٣. وكان الحسين قد تزوج شاه زنان إحدى بنات يزد جرد عاهل الفرس، فولدت زين العابدين فصار للشيعة رحم في الفرس. وفي أوائل القرن الثاني نجحت الدعوة للرضا من آل محمد، وجاء جندها ببني العباس للحكم.

وفتك بنو العباس بأبناء علي فتكًا لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد! وسلم الإمام جعفر الصادق بإمامته العلمية المسلمة وانصرافه عن الإمامة السياسة كأبيه الباقر (١١٤) وجده زين العابدين (٩٤).

وزين العابدين هو الوحيد من نسل الحسين الذي حيى بعد مذبحة كربلاء.

وعلم الإمام جعفر المسلمين من كل مذهب هو شيخ مالك وأبي حنيفة. وأثرهما ظاهر في جميع المذاهب. وهو شيخ جابر بن حيان أول كيماوي في التاريخ، ومنه انتقل إلى العالم المعاصر منهج المسلمين في التجربة والاستخلاص.

لكن أثر جعفر الضخم كان في قيام شيعته بعد موته سنة ١٤٨. بتشكيل مذهب متكامل في فقه العبادات والمعاملات، وطريقة الحياة والسعي للرزق، وفي نظام الحكم، سمى الجعفري (نسبة إليه – أو الإمامي أو "الإثنا عشري" نسبة إلى قول أصحابه إن الأئمة اثنا عشرة أولهم

علي فالحسن فالحسين فزين العابدين فالباقر فجعفر فابنه موسى الكاظم فخمسة متسلسلون من حفدته. وهو مذهب في الفقه الإسلامي يتجارى هو ومذاهب أهل السنة، تعمل به الآن دولة إيران وأقليات كبيرة في دول الإسلام أو غيرها [٣١].

وكذلك تعمل أقليات أخرى من الشيعة بمذهب عمه زيد بن علي زين العابدين، وهو مذهب قاعدته السياسية أن يجاهد الإمام للمطالبة بحقه، وأما في الفقه فهو أقرب مذاهب الشيعة إلى فقه أبي حنيفة إمام أهل الرأي من أهل السنة، مما يشير إلى تأثير زيد في علم أبي حنيفة وانتفاع المذاهب كافة به عن هذه الطريق.

ومن الشيعة من قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه وأن أباه أخفاه في حياته خوفًا عليه من السلطة وإن محمد بن إسماعيل صار إمامًا.

وبهذا نشأت الفرقة الإسماعيلية، ثم صارت أفراقًا: منها الغلاة، ومنها المعتدلون لكن ديدنها كلها الخفاء، اتقاء (تقية) للخطر، وهي مجمعة على أن الإمام يمتاز ممن عداه، ومنهم من يؤولون القرآن والسنة لتجاري النصوص سياسة المذهب ومن يزعمون قدرًا إلاهيًا في الإمام، وهي أفكار سبق بها مغالون آخرون ممن ألهوا أمير المؤمنين عليًا في حياته فخد الأخاديد وحرقهم فيها بالنار.

ومنهم الكربيية قالوا: إن محمد بن الحنفية لم يمت! وقال آخرون – من القرن الأول – إنه سيرجع؛ ومنهم حمزة بن عمارة ادعى النبوة وكان يقول: (من عرف الإمامة فليصنع ما يشاء)، ولهذا أحل المحارم الجميع العارفين.

ومنهم الذين أولوا الجنة والنار والصلاة والصوم وغيرها على أنها أسماء رجال أمروا بمعاداتهم أو موالاتهم، كأتباع أبي منصور العجلي الذي زعم أنه خليفة الإمام الباقر، وقد لبه يوسف بن عمر الثقفي حوالي سنة ١٢٥ [٣٢].

---

(٣١) راجع كتابنا: الإمام جعفر الصادق طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٣٢) وزعم الناورسية أن "جعفر الصادق حي لا يموت حتى يظهر باعتباره "المهدي المنتظر".

وزعم الخطابية – في حياة جعفر – أنه نبي مرسل، وأن النبوة نور في الإمامة، وأولوا الكتاب والسنة وأحلوا المحارم، وتبرأ منهم الإمام جعفر، وفتك بهم عيسى بن موسى والي أبي جعفر المنصور على الكوفة وقتل أبا الخطاب.

ومنهم فرقة القرامطة التي استغلظ أمرها سنة ٢٧٨. يقولون بوجود أئمة سبعة بعد النبي عليه الصلاة والسلام أولهم علي ثم الخمسة الذين أسلفناهم والسابع محمد بن إسماعيل. وهو "القائم" و "المهدي والمنتظر" وهو "غائب مستتر" وهو "خاتم النبيين" وأبعدوا في "التأويل" ليقيموا بنيانًا خصوصيًا لنحلتهم.

وفي حياة زعيمهم حمدان بن الأشعث (المسمى قرمط) – وقد مات سنة ٢٨٦ – قامت فتنة القرامطة انتفاضًا على الدولة والأمة، فاستولوا على "البحرين"، وتوجهوا إلى مكة، فنزعوا الحجر الأسود من الكعبة واحتجزوه على مدى اثنين وعشرين عامًا ثم أعادوه إلى الكوفة ومعه ورقة جاء فيها (نزعناه بأمر وأعدناه بأمر).

* * *

أرسل القرامطة داعيةً لليمن يلقب (ابن حوشب) وأرسل داعي اليمن داعيًا بالمغرب أظهر المذهب الإسماعيلي، فاستولوا على بلاد المغرب وأنشئوا مدينة المهدية في أرض القيروان بتونس، وأقاموا الدولة العيدية سنة ٢٩٨. ثم سموها "الفاطمية" نسبة إلى فاطمة الزهراء باعتبارهم حفدتها [٣٣]، وفتحت الدولة الفاطمية مصر في سنة ٣٥٨ ودُعيَ لها في بغداد سنة ٤٥٠.

وفي مصر ازدادوا حضارة والتزامًا بتراث العالم الإسلامي كافة فطرأ عليهم الاعتدال المذهبي، وقاوم المصريون تقديس المغالين منهم لأئمتهم، وفي سنة ٤٠٨ أخرجوا من غلوا في الحاكم بأمر الله إلى لبنان، فنشأت فرقة الدروز، ثم شاركت في قتل الحاكم أخته (ست الملك)، وكانت أمها جاريةً رومية نصرانية من سراري الخليفة العزيز بالله.

وتعاظم نفوذ النصارى واليهود في دولتهم. فخالا (ست الملك) يعينان بطريقين للإسكندرية، حيث الكنيسة القبطية، ولبيت المقدس، ويعقوب بن كلس ذمي أسلم وهو الوزير الذي

ثم انقسم الأحياء من أصحاب هذه النحلة فصاروا نحلاً تعمل في الخفاء منها البزيغية والمفضلية والمعمرية والعميرية قال بعضهم بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو حجر الأساس في الفرقة الإسماعيلية.

(٣٣) المؤرخون مختلفون في صحة نسب الفاطميين فوي سنة ٤٠٦ حرر صاحب الموصل – وكان تابعًا للخلافة العباسية – محضرًا ببطلان نسبهم وقع عليهم جماعة من أهل البيت يتصدرهم الشريفان المرضي والمرتضى وهما من نسل الإمام الكاظم. وعظيمان من علماء الإمامية وقاضي القضاة بن الأكفاني وفقهاء عظماء من جميع المذاهب فيهم الإسفرابيني والقدوري وأبو عبد الله البيضاوي.

نظم التدريس بالأزهر. ووكل الخليفة العزيز إدارة مصر إلى نصراني اسمه عيسى بن نسطورس. أما إدارة الشام فعهد فيها ليهودي اسمه منشا.

وأصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧) إلى قائده الأرمني الأصل بدر الجمالي فولدت له بنت بدر (المستعلي)، فولاده بدر الخلافة وحبس أخاه نزارًا صاحب الحق في الخلافة. ثم قتل نزارا، فدعى لإمامته الحسن بن الصباح في إيران.

والفاطميون أجمع يخلعون على أئمتهم بعض صفات الله سبحانه:

يقول ابن هانئ للمعز لدين الله وهو خليفة:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ويقول المعز لدين الله إذ مات ابن هانئ سنة ٣٦٣: (هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق).

ويقول آخر عن الخليفة:

بشر في العين إلا أنه عن طريق العقل نورٌ وهدى
حل أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسدًا

ويشير ثالث إلى الخليفة فيقول:

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه العقل والتنزيلا
وإذا تمثل راكبًا في مجلس عاينت تخت ركابه جبريلا

ويمدح الأمير تميم بن معد أخاه الخليفة العزيز فيقول فيه:

مضى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولي وبسط الأرض والمطر

دعا الحسن بن الصباح لنزار واستقل بفرقته عن الفاطميين بمصر، وأقام مجتمعًا إسماعيليًا في شمالي إيران؛ وفرقة إرهابية سرية أفزعت الخلفاء والأمراء، وروعت العلماء، فمن قتلاها في القرن الخامس لوزير السجلوقي الكبير "نظام الملك" وعلماء المدرسة النظامية.

وفي القرن السادس ولَّى بعضهم فرارًا من السلاجقة إلى الشام، وشادوا قلاعًا لهم في حماة وطرابلس. وحالفوا الصليبيين على المسلمين، والمسلمين على الصليبيين. فقتلوا في سنة ٥١٩ أمير طرابلس الصليبي Raymond، ودخلوا معسكر صلاح الدين وهو يعد للمعركة مع الصليبيين، فطعنوه بخناجرهم.

وفي القرن السابع اكتسح هولاكو معاقلهم في إيران فتشتتوا.

والمؤرخون الفرنجة يطلقون عليهم لفظ الحشاشين Assassins من تعاطي الحشيش المخدر أو من لفظ القتلة الذي تعنيه الكلمة باللغة الفرنسية.

أما أوصاف أهل السنة لهم فهي: الملحدة والمزدكية أو التعليمية أو الباطنية.

وفيهم يقول الغزالي (٥٠٥) في كتابه (فضائح الباطنية):

(مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض، ومفتتحه حصر لمدارك العلوم في الإمام المعصوم. وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات.. هذا مبتدأ دعوتهم؛ ثم إنهم بالآخرة يظهرون ما يناقض الشرع. والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها واستنكار الشرائع إلا أنهم أجمع ينكرون ذلك إذا نسب إليهم).

ولو امتدت به العمر لرأى آثارهم في فكر المتصوفة الفلاسفة أبلج كأضواء النهار.

فمن بعد موت الحسن بن الصباح استحدث واحد ممن خلفوه في القرن السادس (الحسن بن محمد بن بزرك) ما سماه "عيد القيام" [٣٤] – وعيد القيامة من أعياد المسيحية – وغير أتباع الحسن الأصول الشرعية والعقائد الدينية. وقرروا تحليل المحارم ونفي الفرائض تأويلاً منهم للشريعة في خدمة الإمام (السلطان):

---

(٣٤) أقام الحسن في ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ قبلة مغايرة لقبلة المسلمين، ونصب إليها أعلامًا أربعة لكل منها لون أبيض أو أصفر أو أحمر أو أخضر، وأعلن أن رسولاً جاءه من عند الإمام المستتر يخبره أن الإمام رفع عنهم إصر الشريعة ورسومها، فصار اليوم عندهم يوم عيد سموه "عيد القيام" وسكروا وتهتكوا وأعلنوه ممثلاً للإمام.

فشهادة التوحيد – وهي أساس الدين – معناها – عندهم معرفة الله عن طريق الإمام! أما الصلاة فمعناها ألا يغفل المرء أبدًا عن طاعة الله ورسوله وخليفته (أي الإمام). وأما الصوم فهو أن ينذر أعضاء جسده في الظاهر والباطن لأمر الله الذي يمثله الإمام!

وأما الزكاة فهي أن يعطي المرء كل ما وهب الله له من مال لبيت مال الإمام، أو يهبه – بأمر الإمام – لأخ مؤمن!

وأما الجهاد فهو جهاد النفس والقضاء على هواها!

وأما الحج عندهم فأن تحفظ يدك عن الدنيا الفانية وتطلب الدار الباقية!

وأخيرًا فالطهارة التي تسبق الصلاة هي التطهر من فعل أهل الظاهر: أي التجاوز عن قواعد أهل السنة. والوضوء هو الرجوع إلى علم الإمام؛ لأن الماء هو الحقيقة!

وعلى الجملة جعلوا الإمام هو الوسيلة بين الله والبشر، وجعلوه لازمة من لوازم الوجود، ووضعوا أركان الدين كلها في قبضته بالتأويل الرمزي.

وقد قتل الحسن سنة ٥٥٩ وخلفه ابنه محمد، فتابع أباه حتى مات سنة ٦٠٧.

ثم خلفه ابنه جلال الدين حسن، فأعاد الناس إلى الجادة. وأبى جيرانه أهل قزوين أن يعترفوا بإسلامه إلا أن يلعن صنيع أبيه وجده. فكتب ورقة جاء فيها: (ملأ الله قبورهم نارًا) وأراد أن يصهر إلى أهل أذربيجان فأبوا إلا أن يشهد خليفة بغداد بإسلامه. فشهد، واشتهر جلال الدين في قومه بأنه المسلم الجديد (نيو مسلمان) وخلفه ابنه ع لاء الدين سنة ٦١٨، وخلفه خلف من أهله حتى دمر هولاكو دولتهم سنة ٦٥٤.

التصوف الفلسفي:

فإذا انتقلنا من عالم الشيعة الغلاة إلى عالم التصوف الفلسفي فنحن لا نبعد، فالولي عند هؤلاء الصوفية يقابل الإمام عند الشيعة. وللولي العصمة، ولكل ظاهر باطن. وبالباطن يستأثر الولي، بل قد يزداد الصوفية في الغلواء، فيرفعون الولي على الرسول في الدرجة زاعمين أنه يتصل ابلله بغير وسيلة الملائكة أو لحلول ذات الله فيه، وقد يرفعون عنه التكليف وينسبون إليه علم الغيب! ولا يقفون في التأويل عند حدود.

يروي الشهرستاني عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إمام الشيعة: (إن لكل ظاهر باطنًا ولكل شخص روحًا ولكل تنزيل (تأويلاً)، ولكل مقال في العالم حقيقة. والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني، وهو العلم الذي استأثر به على عليه السلام، ثم ابنه محمد بن الحنفية، وهو أفضى بذلك السر إلى ابنه أبي هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقًا).

ويقول ابن عربي: (٦٣٨): إن النبي ليس أعلى من الولي إلا في نظر أهل الظاهر – أهل الشريعة – أما من اقترنت عنده حالة أخرى تقتضيها مرتبة النبوة فيعلم أن الولاية هي (علو رتبة باقية – وهي المرتبة الباقية على الأنبياء والرسل التي ليست بمحل للشرع) فالرسول جاءنا بالشرع أما علم الأولياء فيجيئهم من الله مباشرة بالتجلي والمشاهدة وما في النبي من ولاية يرجع فقط إلى قدر نصيبه من هذا العلم. والولاية يتعلق حكمها بالله تعالى ولها الدوام في الدنيا والآخرة. والرسالة يتعلق حكمها بالخلق وينقطع بزوال التكليف.

والفناء هو إهلاك النفس ليصعد الفاني إلى الملأ الأعلى ويلحق بالعقول المجردة، وهذا هو طريق إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يذبح شاة، وإنما ذبح بشرية نفسه وحيوانيتها، فالأولياء – بتعبير ابن عربي – هم (المستغرقون في عين الهوية الأحدية بفناء الأنية) وهم (متصلون بالمبادئ الروحانية كالعقل وما يليه) وهم (الذين آمنوا الإيمان اليقيني، وكانوا يتقون حجب صفات النفس ومواقع الكشف).

وعندما يفنى الولي في الله (لا يكون تصرفه صادرًا عن عقل واع، وإنما هي النفس الكلية المتحدة تتصرف وتصدر عن المثل الأعلى).

والعارف إذا بلغ مقام الولاية فليس تصرفه إلا جبرًا واضطرارًا، لأن الفناء في (هوية الأحدية) قد سلبه حرية الاختيار والتصرف.

وكانت كتب الحكيم الترمذي عن الولاية وخاتم الأولياء بين يدي ابن عربي وهو يكتب ما كتب، وغ، كان قد تمادى فجمع لنفسه (كادر) الأولياء كله.

وهو القائل: إنه اجتمع هو (ورجل من المغرب فيه خاتم الولاية بمدينة فاس، وأنه التقى هو والأبدال السبعة في مكان خلف حطيم الحنابلة بمكة، وأنه شهد الأقطاب وعددهم ٢٥ قطبًا في مشهد أقدس في حضرة برزخية بمدينة قرطبة).

ثم تمادى فرأى نفسه خاتم الأولياء:

قال: (أما الولاية المحمدية وختمها فلرجل من العرب) وقال في (الفتوحات) المكية: (وهو في زماننا اليوم موجود ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق عن عيون عباده) ثم قال في عنقاء مغرب: (فإني أنا الختم. لا ولي بعدي ولا حامل لعهدي. بفقدي تذهب الدول وتلتحق الأخريات بالأول) [٣٥].

وأصحاب الطرق الصوفية بغير استثناء يضعون عليًا رضي الله عنه في قمة النظام الصوفي وهم في التعلق به أو التشيع سواء.

الحسن البصري (١١٠) يسمي عليًا (رباني هذه الأمة) ومعروف الكرخي (٢٠٢) نصراني أسلم على يد الإمام على الرضا إمام الشيعة والحكيم الترمذي (٢٩٦) يكتب مائة وخمسًا وخمسين مسألة تنبئ عن تشيعه: فالمسألة الخمسون هي (أهل بيتي أمان لأمتي) والواحدة والخمسون بعد المائة (آل محمد) ولما كبست أوراق الحلاج (٣٠٩) وجدت عنده صورة فيها اسم

---

(٣٥) ولد محمد بن علي بن أحمد بن عبد الله (ابن عربي) بمرسية سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق سنة ٥٩٨ واستقر بالشام ومكن له الأسباب اتصاله بالملوك. فملك قونية في الأناضول وهو مسلم يلقبه بالوالد وملك الروم كيكاموس (٦٠٩) يكتب إليه يستنصحه. ويزور الملك فيقول الملك لجلسائه: هذا رجل تذل له الأسود، وأمر له الملك بمائة ألف درهم، فتركها ورحل عائدًا إلى دمشق حيث مات ودفن.

وعندما غزا الأتراك الشام بنى له السلطان سليم قبة وقد هم المصريون بقتله عندما زار مصر.

ومن العلماء من يكفرونه كالسخاوي والسعد التفتازاني ومثلاً على القاري وابن دقيق العيد وأبي حيان وابن حجر العسقلاني (٨٥٢) وابن تيمية (٧٢٨) وابن خلدون (٨٠٩).

وكتب إبراهيم البقاعي كتابين ضده أحدهما (تنبيه الغني على كفر ابن عربي) والآخر (تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإلحاد). أما السيوطي فكتب دفاعًا عنه (تنبيه الغنبي في تبرئة ابن عربي).

وكتب عبد الوهاب الشعراني كتابًا في الدفاع عن أمساء (الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر) و (كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر) دار أكبر اهتمامه فيه حول ابن عربي.

أما الفخر الرازي والفاشاني وغيرهم كثيرون فلم يكفرون وآخرون كالحصكفي من كبار الفقهاء يرون أنه كان يتعاطى الحشيش المخدر فأثر عليه.

وبعض يرى التجاوز عما يقوله لأنه يقوله وهو في حالات غيبوبته عن الواقع. وهو نفسه يقول عن تأليفه (إن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التأليف، ولا نجري فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره... ونحن في تأليفنا هذا لسنا كذلك إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية. مراقبة لما يفتح لها الباب. فقيرة خالية من كل علم لو سئلت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدها إحساسها، مهما برز لها من وراء ذلك الستر بادرت لامتثاله وألفته على حسب ما حُدّ لها في الأمر).

الله وفي داخل الكتابة تعويج مكتوب فيه (علي عليه السلام) والجيلي (٥٦٠) صاحب الطريقة من نسل الإمام علي والرفاعي [٣٦] (٥٧٠) علوي.

وابن عربي يقول عن تفسير قوله تعالى (عن النبأ العظيم) (إنه هو القيامة الكبرى؛ ولذلك قيل عن أمير المؤمنين علي هو النبأ العظيم).

وأحمد البدوي (٦٣٨) وأبو الحسن الشاذلي (٦٥٦) وإبراهيم الدسوقي (٦٧٦) كمثلهم في التعلق، والشعراني (٩٧٣) كذلك، وهو يروي عن (الولي علي وفا) قوله: (إن علي بن أبي طالب رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما ينزل عيسى)!

* * *

ولئن رأى المستشرقون بين غلواء الاتجاهات الشيعية والصوفية وبين بعض العقائد أو النظريات أو طريقة الحياة في المجتمع الفارسي، أو بين بعض ضروب التزهد أو التعبد الهندي – إن كثيرين يرون وشيجة جامعة بين استمداد العلم من الله مباشرة كما يعم الشيعة للإمام والصوفية المولى، وبين مزج الإلهام الروحي بالنظر العقلي عند الإغريق. وهي الأفلاطونية المحدثة كما صاغها أفلوطين. وقد عرفه المسلمون من ترجمة قام بها عبد المسيح بن ناعمة الحمصي وسموا أصحابها مدرسة الإسكندرانيين. كما سمي الشهرستاني أفلوطين (الشيخ اليوناني)، ونقلها المتصوفة حيث قالوا: إن الحقيقة العليا لا تدرك بالفكر ولكن بالمشاهدة في حالة الغيبة عن النفس وعن العالم الأرضي.

وما هي إلا كلمات (الشيخ اليوناني):

(لنعتزل العالم الخارجي، ونتوجه إلى داخل أنفسنا ونجهل كل شيء حتى كوننا نحن الذين نتأمل؛ فمن داخل النفس واتصالها بالملأ الأعلى تكتسب المعارف الحق).

والمعرفة باليونانية Gnosis غنوص، وهي كلمة تطلق منذ القدم على المعارف التي تكتشف بالحدس الناشيء عن اتصال العارف بالمعروف عن غير طريق البرهنة والاستدلال أي الطريق العلمي. والعرب يستعملون لفظ الغنوص ليعبروا عن المعنى اليوناني.

---

(٣٦) إليه تنسب الطريقة الرفاعية وهم قوم يذكرون الله لكن فيهم منحرفين يطعنون أنفسهم بالمدى. ويأكلون النار والأفاعي. ليبرهنوا للناس على أن النفس بيد الله تصبح في غيبة تفارق البدن فلا يمسها الألم.

يقول ابن عربي: (إن للعلم الإلهي ثلاث طرق هي الذوق والكشف وهي طريق العلم الكامل، ثم البحث والنظر، ثم الإخبار الذي خص به الأنبياء) ثم يقول: (والإخبار أيضًا يقصر عن إدراك ما لا ينال إلا بالذوق).

والسهروردي صاحب عوارف المعارف يعترف بأن بعض نظريات المتصوفة وهي الصفاء للوصول إلى الله مأخوذة من الفلسفة الإغريقية وبأن الوحدة والحلول لها جذور في المجتمع الفارسي قبل ظهور الإسلام.

يقول: (خميرة الفيثاغويين وقعت إلى أخي أخميم [٣٧]، ومنه نزلت إلى سيار تستر وشيعته. أما خميرة الخسراونيين فهي نازلة إلى سيار بسطام. ومن بعده إلى فتى بيضاء. ومن بعده إلى سيار آمل).

وأخو أخميم هو ذو النون المصري، وسيار بسطام هو أبو يزيد. وفتى بيضاء هو الحلاج. وسيار آمل هو أبو الحسن الخراقاني (٤٢٩).

والباطنية من الشيعة يوسعون مدى الغنوصية لتشمل الأئمة وكبار الدعاة.

والمتصوفة أمثالهم يجعلون الأولياء مجعل الأئمة ويرتبونهم رتبًا وأنساقًا، من أدنى لأعلى "فالصالحون" كثيرون ليخالطوا العوام. و "النجباء" قليل ثم "الأبدال" أقل.

وكل من الأبدال منفرد بقطر من الأقطار وقد يوجد اثنان في قطر.

---

(٣٧) كانت في دير أخميم من صعيد مصر (محافظة سوهاج الآن) مدرسة عظيمة نبه فيها أفلوطين وزوسيموس والأخير قد ذكره الرازي الطبيب في القرنين الرابع والخمس الهجريين مما يشير إلى انتفاع العلماء الإسلاميين بكتب هذه المدرسة التي تحويها الأديرة المصرية وتيارها بصب في مدرسة الإسكندرية، وذو النون من أوائل الذين فلسفوا الصوفية، وله نظريتان في المعرفة والمحبة تضاهثان نظريات الأقدمين، فالمعرفة عنده معرفة عامة المؤمنين أو معرفة الخاصة من المتكلمين والحكماء، ثم معرفة خواص الأولياء والمقربين الذين يعرفون الله بقلوبهم، وهي أرقاها وأوفرها حظًا من اليقين.

ولما سئل عن كيفية معرفته بربه قال: (عرفت ربي ولولا ربي ما عرفت ربي) والمحبة عنده تيار متبادل بين العبد وربه يشعر فيه العبد باستغراق ذاته في ذات الله. وهذا هو الحب الإلهي الذي يجب على من تحقق به ألا يتحدث عنه.

وأثر النظريتين ظاهر في التستري والنخشبي وأبي عبد الله الجلاء وأبي سعيد الخراز (٢٧٧) وآخرين.

وأما "الأوتاد" فواحد في اليمن وثان في الشام وثالث في المشرق والرابع في المغرب.

وأما "القطب" فواحد يديره الله دوران الفلك في السماء وهو "الغوث": "يُرَى عالمًا كجاهل، أبله كفِطن؛ تاركًا آخذًا، قريبًا بعيدًا، سهلاً عسرًا، آمنًا حذرًا!".

وما دام الغوث عالمًا كجاهل، أبله كفطن – فلا بدع أن يكون لسائر الصوفية شطحات او همهمات، وأن يعيرها أتباعهم أسماعهم. يستقصون في كل هينمة معنى، وفي كل همهمةٍ مضمونًا؛ فلعل ثمة العلم اللدني!

وفي القرن الرابع يحدد الكتاني (٣٢٢) العدد فيستكثر، ويستحدث درجات أخر. ويعين مقار العمل ويعين العمل: (فالغوث واحد، والعمد أربعة، والأحبار سبعة، والأبدال أربعون، والنجباء سبعون، والنقباء ثلثمائة، والنقباء بالمغرب، والنجباء بمصر، والأبدال بالشام، والأحبار سياحون في الأرض. والعمد في زوايا الأرض. والغوث بمكة. فلا يتم الغوث الدعاء حتى تجاب الدعوة).

* * *

ولئن نجح غلاة الشيعة هنا أو هناك زمانًا، أو أفلح المعتدلون منهم في نشر المذاهب العلمية وإقامة دول حملت رايات الإسلام في أرجاء العالم، إن أثر الغلو الصوفي في سلوك الجماعات كان مثبطًا، بما فيه من تخليط يؤثر السلبية على الإيجابية، أي العمل؛ والمجهول على المعلوم، والباطن على الظاهر، والإدهان للحكام على النصح لهم، أو تحمل تبعات الإصلاح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذا كان من صلحاء الصوفية من عرفهم سهل بن عبد الله التستري (الصوفي من صفا من ضغائن الكدر وخلا من الفكر) وانقطع عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر) فيجعلون الاعتزال والانقطاع عن العمل منتهى همتهم، إن العامة عظم الأمة لا تقدر على أن تنقطع عن العمل أو يستوى عندها الذهب والحصى. أما الخاصة فأعجل إلى الدنيا من العامة، ومن نصحاء المتصوفة ومن واجب الجميع عمارة الدنيا.

هكذا تخلف من التراث الصوفي طقوس عزلة وانقطاع وتسلب، ومقولات أغرقت الأتباع في بحار غريبة الأغوار من عليم اليقين إلى عين اليقين إلى حق اليقين، وسال مداد كثير من الكلام عن علم القلوب في مقابل علم الفقه، والباطن في مقابل الظاهر، أو الحقيقة في مقابل

الشريعة، فجعلوا القلوب والبواطن والحقائق خصيصتهم، أما علم الفقه الذي يتداول أحكام الشريعة فهو علم أهل الظاهر.

الأولياء:

وبعد: فمن هم "الأولياء" الذين ورد فيهم قول الله جل ثناؤه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون)؟

لقد ورد لفظ الولي في تسعين موضعًا بالقرآن ومنها أولياء الله وأولياء الشيطان. وكذلك ورد اللفظ في السنة. وما دام قد ورد النص في الكتاب والسنة فيتعين البحث عن معناه فيهما، والحق أن المنقول والمعقول قد وضحا المعنى كل توضيح.

أما المنقول:

فالإمام الطبري (٣١٠) – كبير المفسرين بالمأثور – يفسر الأولياء بأنهم أنصار الله الذين وصفهم بقوله: (الذين أمنوا وكانوا يتقون).

والفخر الرازي (٦٠٦) – كبير المتكلمين – يرى أن القرآن والسنة والآثار قد حددت التعريف بهم. ففي القرآن أنهم هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون)، وفي السنة رواية عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله. قالوا: يا رسول الله خبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فإنا نحبهم لذلك؛ قال: هم قوم تحابوا في الله بروح الله، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها. وقرأ هذه الآية: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

وأما المعقول:

فالولي معناه القريب بالاستغراق في معرفة الله والإيمان بقدرته والثناء عليه وطاعته.

وليس القرب قرب مكان، فهذا تجسيد.

وهو يحصل من الجانبين. والله يقول: (الله ولي الذين آمنوا).

والمتكلمون يقولون: إن "ولي الله من أتى بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل، بالعمل الصحيح، الموافق للشريعة.

فهذه كل طرائق العلم مجمعة على أن الأولياء كما قال تعالى هم: (الذين آمنوا وكانوا يتقون). لكن الصوفية يعلقون كثيرًا على حديث الولي:

في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلى عبدي بشي أحب إليّ مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه).

والمتفلسفون منهم يرتبون على الحديث اتحاد ذات الله تبارك وتعالى مع ذات الولي. والحشويون يتصورون ذات الله كذوات الناس لها عين وأذن ويد ورجل: والحشويون يعيشون بين الجماهير، والمتفلسفون يسقون الناس شراب الكفر في آنية الأنبياء كما يقول ابن تيمية.

ولو استعمل الفريقان في التفسير منهج السلف لفهموا المقصود كما فهمه رسول الله وصحبه وتابعوهم بإحسان. وهي الأجيال الثلاثة التي فضلها رسول الله واختارها الله تعالى ليبذر بها وتنمو فيها بذرة التوحيد في الوجود.

ولو استعملوا منهج الآخرين لأيقنوا أن المقصود رحمة الله وتأييده.

ولو استعملوا فقه المسلمين في الإيمان لرأوا أن أداء الفريضة هو المؤهل للقرب، وأن إضافة النوافل درجة فضل.

فالحديث بنصه وفحواه يهدم كل تفسير باطني يغاير المعنى الجلي للسان العربي الذي ورد به النص.

الكرامات:

يقول القشيري (٣٧٦ – ٤٦٥): إنه ما دامت الولاية مرتبطة بفضل الله وتوفيقه فالأصل أن الولاية لله (يورد الأرواح مورد المكاشفة بأنوار المشاهدة فيفنون عن الإحساس بالنفس، ويورد الأسرار ساحات التوحيد، وعند ذلك الولاية لله فلا نفس ولا حس ولا قلب ولا أنس بل استهلاك في الصمدية وفناء بالكلية).

ويرى القشيري جواز أن تكون للولي كرامات. وهو القائل "قبر معروف (الكرخي) ترياق مجرب".

وابن حزم إمم أهل الظاهر (٣٨٤ – ٤٥٦) باقِعَةُ عصره في الفقه والأدب ولغة العرب، معاصر للقشيري، ينكر أن تكون للأولياء كرامات بمعنى الخوارق وكمثله الإسفراييني (٤١٨ هـ – ١٠٢٧ م) معلم القشيري في الفقه [٣٨] يقول:

(المعجزات دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد لغير نبي، وللأولياء كرامات شبه إجابة الدعاء، أما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا).

وابن فورك أستاذ آخر للقشيري يقول: (المعجزات يؤمر الأنبياء بإظهارها، أما الكرامات فالأنبياء مأمورون بسترها وإخفائها).

وجملة الأمر عند أهل السنة أن (كل خارقة تحدث يتعين تحدث يتعين عرضها على الشريعة: فإن ساغت قبلت).

فالكرامة الحقيقية للولي ليست في الفناء في ذات الله وحلول الله في الولي؛ فهذا يناقض أصل الإسلام وهو التوحيد الخالص؛ وإنما الكرامة هي الكرامة المعنوية وحدها، وقد لا يدركها من وقعت له وإنما (تظهر في رقيه الروحي في مدارج السلوك إلى الله).

وإبراهيم بن أدهم (١٦١) يقول: (الأخيار الأبرار يغضب الله لغضبهم ويرضى لرضائهم).،

وسهل التستري (٢٨٣) يقول: (أكبر الكرامات أن تبدل خلقًا مذمومًا من أخلاقك).

ولما قال له قائل صوفي: ربما أتوضأ فيسيل الماء بين يدي قضبان ذهب وفضة أجاب سهل: (أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة لينشغلوا بها؟).

وقيل لأبي محمد عبد الله المرتعش (٣٢٨): إن فلانًا يمشي في الهواء فأجاب: (عندي: إن مكنه الله تعالى من مخالفة هواه أعظم من المشي في الهواء).

---

(٣٨) الإسفراييني هو أحد الذين بنى لهم الوزير نظام الملك المدرسة النظامية التي تعلم فيها القشيري والغزالي وإمام الحرمين وغيرهم من عظماء العلماء.

الإسلام إيجابي:

والولي في نصوص القرآن والحديث شخصية إيجابية كما يتجلى من أحاديث عمر والنعمان بن بشير وغيرهما. ولا مراء في أن من كبار الأولياء صحابة النبي. ومنهم الذين هاجروا والذين نصروا والذين جاهدوا والذين بشرهم الله ورسوله بأن لهم الجنة. ولم يتماوت واحد منهم تماوت المتصوفين أو الحشويين ولم "يفن" واحد منهم عن نفسه فناء المتفلسفين أو يدع الغيب أو يزعمه له المرجفون. أو يلبس خرقة المتصوفة أو يرتفع له صوت عند الذكر بالغناء أو "بالتغيير" أو اصطناع الهيئات أو الانطواء في تكية.

شتان ما حال الصحابة ومقامهم وأحوال غلاة الصوفية!

الأولون في جهاد واجتهاد والآخرون مبدعون أو متقعدون أو مغربون. ومنهم من يصف أمرهم صوفي سئل عن مشايخه كيف كان يجدهم وقت السماع؟ فأجاب: (مثل قطيع الغنم إذا وقع في وسطه الذئاب!).

وشتان بين ما جوع النبي وصحبه إذا لم يجدوا طعامهم، والتجويع والتعرية اللذين يقول عنهما أبو يزيد البسطامي (٢٦١): إنه وجد المعرفة (ببطن جائع وبدن عريان)، ويقول آخر: (أكل درهم من اللحم يقسّى القلب أربعين صباحًا).

ورسول الله ﷺ يقول: (من أصابه جهد في رمضان فلم يفطر فمات دخل النار) ويقول: (إن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده في مأكله ومشربه) وكان عليه الصلاة والسلام يأكل اللحم ويحب الذراع من الشاة. وهو القائل: (نفسك راحلتك فارفق بها حتى تبلغ الثرى).

والقائل: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف).

وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحمًا.

ويضيف ابن الجوزي حكم الفقه إذ يعوق التجويع العبادة فيتساءل: (أي قربة في هذا الجوع المعطل للعبادة؟ فالمرء إذا كان يتقوى على الصلاة بالطعام يلحق الطعام بالعبادة لأنه يعين عليها).

يروي السهروردي (٦٣٨) أن التزويج عند الصوفية انحطاط من العزيمة إلى الرخصة. وأبو سليمان الدارني يقول: (ما رأيت أحدًا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته)، والشعراني

يروي قولاً لرباح بن عمرو القيسي (لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام؛ ويأوى إلى منازل الكلاب).

شتان ما هذه الأقوال وقول رسول الله ﷺ: (أما والله إني لأخشاكم الله وأتقاكم له لكني أصوم وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني).

والزواج يحتمل الأحكام الخمسة [٣٩]. والرهبنة من طقوس المسيحية، وتعطيل للمسلمين، وتقليل للصالحين، ومنع للإحصان، وتعذيب للفطرة، وإضعاف عن العمل في الدنيا للآخرة.

وابن عطاء السكندري (٧٠٧) صاحب الحكم يرى الخلوة من المجاهدات التي تهيئ النفس (لأحوال الوجد والفناء والمعرفة) وذو النون يقول: (لم أر شيئًا أبعث على الإخلاص من العزلة)، والقشيري يقول: (لا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق).

وفي هؤلاء يقول ابن الجوزي (٥٩٧): إن ذلك المعتزل (لا يتعدى نفعه عتبة بابه والعالم نفعه متعد. وكم قد رد إلى الصواب من متعبد).

شتان ما يدعو هؤلاء له الأمة وما يدعو له رسول الله أمته.

قال أبو أمامة (خرجنا مع رسول الله ﷺ فمر رجل بغار فيه يء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى عن الدنيا، وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: (إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها. ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة).

والاعتزال وعدم العمل وعيش المرء من كسب غيره وانتظار رزق لا يسعى المرء له – كفر لنعمة العافية ولخلافة الإنسان في أرض الله.

---

(٣٩) الزواج فرض إذا قدر الرجل على المهر والنفقة وواجبات الزوجة عليه وتيقن أنه إذا لم يتزوج زنى، وهو واجب إذا قدر على كل ذلك وخاف أنه إذا لم يتزوج زنى، وهو مندوب إذا قدر على كل ذلك وكان في حالة اعتدال لا يخاف أنه إذا لم يتزوج زنى، وهو مكروه تحريمًا إذا خاف ولم يتيقن أنه يظلم زوجته إذا تزوج، وهو محرم إذا تيقن أنه إذا تزوج يظلم زوجته ولا يقوم بواجبات الزوجة.

oberkanon.com

وشتان ما هؤلاء الذين يتراصفون في التكايا نيامًا وقعودًا والذين يتراصون في الصفوف للزحوف.

* * *

وابن خلدون (٨٠٨) قاض يقدر على الفصل في النزاع. ومؤرخ يدرك روح التاريخ، فيعلن حاجة القرن التاسع الذي عاش فيه، بل حاجة كل القرون، إلى العودة إلى الأمر بمزيد من الدراسة للرسالة والسيرة والسنة، ويكرر وصية أشياخه له لتكن وصية للأمة منه بالترياق الحقيقي الذي يفلح به كل مصلح. وهو فهم سنة الرسول والعمل بها. فيقول:

(ولقد سمعت كثيرًا من شيوخنا رحمهم الله يقولون: "شرح كتاب البخاري دين على الأمة" يعنون أن أحدًا من علماء الأمة لم يوف له من الشرح بهذا الاعتبار) (٤٠).

ويقول عن علم الحقائق: (إن هذا العلم – كما رأيته – غير واف بمقاصدهم التي حرموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها). ثم يقول عن الصوفية الفلسفية: (أما علومها الطبيعية وما يستعمله أصحابها من البراهين فليكن الناظر فيها متحرزًا من معاطيها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والإطلاع على التفسير والفقه ولا يكبنَّ أحد عليها وهو خال من علوم الله).

أما آراء المحدثين والفقهاء فقد سبق بها ابن الصلاح (٥٧٧ – ٦٣٤ هـ) – (١١٨٩–١٢٤٥م) حيث قال: (الفلسفة أساس السفه والانحلال).

ولم ترع الجماهير سمعها في حياة ابن الصلاح لمن أنبهوها على الانحلال، بل أتاحت للمتفلسفين المتصوفين البحبحة والتمكن بذيوع مقولات ابن عربي (٦٣٨) وعبد الحق بن سبعين (٦٦٧) وعمر بن الفارض (٦٣٢) وكان به سكر من الحب الإلهي. وشتان ما شعره وشعر رابعة العدوية، فهذا شعر القرن الثاني للهجرة وذاك شعر عصر ابن عربي.

---

(٤٠) إذا عرفنا أن للبخاري اثنين وثمانين شرحًا ولمسلم خمسة عشر (وهذان هما الصحيحان) بخلاف سائر شروح كتب السنن الكثيرة أمكننا أن نقرر أن المطلوب مزيد من الشروح في كل عصر، ليفهم الناس خلود الشريعة وسموها وليدركوا مبلغ ما تسعفهم في دنياهم في كل عصر ومصر.

وعصر ابن عربي هو الذي نزل فيه الصليبيون دمياط سنة ٦١٥ وردهم المصريون سنة ٦١٨، فكروا كرة أخرى في سنة ٦٤٧ فأسر الملك لويس التاسع سنة ٦٤٨ (١٢٥٠م) ثم أفرج عنه بفدية.

وعصر ابن عربي هو الذي دخل فيه هولاكو بغداد في صفر سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) واحتل الشام بعدها بأشهر. ولم يرد جيوشه عن سائر بلاد الإسلام إلا هزيمته في عين جالوت في رمضان سنة ٦٥٨ = سبتمبر سنة ١٢٦٠.

* * *

في عصور التخلف هذه يقتصر الفقهاء على التقليد، وينتقل تقليدهم إلى العامة فيصير إيمانًا بهم. وطاعةً كلها العبادة لهم. ويخضع الجهلاء لأضاليل المتفلسفين في أي فن فيعبدون أشخاصهم وأفكارهم.

ويوم يعبد الناس غيرهم يكونون عباد أصنام، وعبدة الأصنام أدنى من معبوداتهم.

والناس أعجل في الخضوع في أيام المقاحظ والمحن العامة والخاصة، كمثل تعلق المرضى بوهم والغرقى بقشة. والغرثى بسراب.

وكلما طالت عصور التخلف والضعف استحكمت البدع ونفقت سوق الدجاجلة بدعوى العلم اللدني لديهم أو لدى غيرهم، يحشدون لها الأدوات من الأشخاص والأشياء لتصديقهم.

وكثيرًا ما استرعت عبادة بعض الناس أنظار العامة فنسبت إليهم ما لا يدعونه. ومن فلاسفة التصوف انضاء عبادة نسب إليهم الناس أكثر مما تصوروه: أو تجاوزوا عن غلوائهم من أجل تقواهم.

والناس من شهواتهم الدنية أو حاجاتهم الدنيوية أو حالاتهم المرضية يستبدلون الأماني بالحقائق والأخيلة بالواقع. فيكفرون وفق شهواتهم.

وليس عجيبًا أن ينعكس سلوك الرعية على أفهام أولي الأمر، علماء وحكامًا؛ إذ تصبح البدع تقاليد للجماعة يعز الخروج عليها إلا من المقتدر. والحكام أحوج إلى الجماهير ومجاراتها إذ لم يكونوا منها، ليسير عليهم أن يستسخروها، أو يسخروا منها.

* * *

هكذا تمسي الجماعة صورة مهزوزة أو خيال ظل شأنه الأصل. تكتنفه الأوهام من كل جانب، فتمشي مشي المسحور في برزخ لا هو الخيال ولا هو الحقيقة. وتزداد الفرجة بين عقيدة الأمة وسلوكها، فلا يكاد يصلها بالعقيدة إلا الاسم، أو يبقى من العمل بالدين إلا التزام الطقوس.

ومن السعي الواجب للحياة الكريمة إلا القناعة بأدنى الجهد. ثم لا تجد الجماعة في علمائها غنية، أن لم يبق فيهم قدوة، فتؤثر الحياة المتاحة لها من الحرام أو الحلال. وتنكبّ على وجهها في تراث الوثنية، تدليها الغرائز، وحاجات العيش من يوم ليوم، وتتعاورها الرذائل، وتسري المعاصي سريان النار في أمتعة بالية.

والمعصية شجرة تنبت حولها أمثالها، ومن عقوبة السيئة ما تنبته من سيئة مثلها. فتشيع الفاحشة. ولا تقتصر الفتنة على الذين ظلموا خاصة.

وهذه حال نبه عليها رسول الله ﷺ:

قالت عائشة: دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء. فما تكلم حتى توضأ وخرج، فلصقت بالحجرة. وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أيها الناس، إن الله عز وجل يقول لكم: مُروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتستنصروني فلا أنصركم وتسألوني فلا أعطيكم).

ولم يشارف جيل الصحابة ختامه حتى سمعنا أنس بن مالك يقول للتابعين: "إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، وإن كنا نعدها في عهد رسول الله من الموبقات". وسمعنا الحسن البصري (١١٠) يقول عن الرافهين المتجبرين: (إنهم – وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين – إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه).

وفي عصر الحسن كان الناس يستمعون للنصحاء ويتذاكرون الواجب. حتى حكام بني أمية روى عنهم الإمام أحمد في المسند "وجد في خزائن بني أمية حبة حنطة بقدر نواة التمرة وهي في صرة مكتوب عليها: (هذا كان بنت في زمن العدل).

ثم تلاحقت أجيال من البدع تلاحق أجيال الناس في نسيان الله. وهو القائل لهم سبحانه **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾**

وأول عقوبة للعصاة فساد أنفسهم وزوال نعم الله عليهم: يقول علي بن أبي طالب: (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة).

وفي المسند من حديث ثوبان قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه). ومن ثم يجوع الناس بذنوبهم ويأخذ الفساد في الازدياد على حسب ما يُبعد الزمان من القرون الأولى:

لقد لعن الرسول الواشمة والمستوشمة والواشرة والمستوشرة والواصلة والموصولة والنامصة والمتنمصة. ولعن الخمر وشاربها وساقيها والمخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء واللابسات لبسة الرجال، والسحرة – والولاة الظلمة وآكل الربا والراشي والمرتشي والرائش [٤١] والمحلل والمحلل له وزوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج.

وأصبحت اللعنة عامة منذ أصبحت الجماعة تقبل ذلك كله، ويعمل بعضها كثيرًا منه، دون إنكار عليه وربما مع الرضا عنه.

بل أصبح من الناس من يسجدون لغير الله سبحانه، ويطوفون بغير بيته المبارك. ويقبلون أحجارًا وقبورًا. ويستلمون أركانها ويحلفون بغير خالقهم ويمجدون صفاته. وغيرت البدع – مكفرات أو مضللات – وجه المجتمع فوجد فيه من يدعي ولاية الله ورفع التكليف عنه ومن تنسب إليه الكرامات وتطلب منه الشفاعات.

على هذا التيه الكريه من المعاصي ثار ابن تيمية. وقضى عليه الجهلاء – في ثياب علماء – بالسجن مرة بعد أخرى، من أجل إيمانه الصحيح، لأنهم كانوا في موضع الخصم والحكم.

---

(٤١) الرائش: السفير بين الراشي والمرتشي.

obeikandl.com